قراءة فى رحلة فيفان دينون
رحلة فى مصر السفلى و العليا خلال حملات الجنرال بونابرت

د . رغدة أبو الفتوح

كانت سياسة بونابرت تعتمد بشكل أساسى على "البروباجندا" أو الدعاية واستخدام كل وسائل التأثير التى تشكل صورته فى ذهنية الجمهور الفرنسى . وكان نشر المذكرات الخاصة بأعضاء الحملة المختلفين، سواء أكانوا من العلماء أم كانوا من العسكريين، تعد إحدى تلك الوسائل. وكان أول نشر لمذكرات عن الاحتلال الفرنسى على مصر من نصيب "فيفان دينون". وهو اسم يجهله الكثيرون اليوم ولكنه معروف عند علماء تنظيم المتاحف؛ وذلك بسبب دوره المهم فى تنظيم متحف اللوفر، ومده بالآثار التى جُمِعَت عن طريق النهب أو الشراء من مختلف بلدان العالم، وذلك خلال فترة مصاحبته لبونابرت فى ميادين القتال المختلفة.

تم نشر مذكرات فيفان دينون عن مصر فى ألفى العام 1802، وذلك تحت عنوان: "رحلة فى مصر السفلى والعليا أثناء حملات القائد بونابرت". وتتكون هذه المذكرات من جزأين الجزء الأول مخصص لسرد يومياته عن الفترة التى قضاها فى مصر، وتمتد من 19 مايو 1798 إلى 23 أغسطس 1799، فى صحبة بونابرت ثم فى صحبة ديزيه فى أعالى الصعيد ؛ حيث كان يدون ملاحظاته وانطباعاته أولا بأول عن كل ما يراه فى رحلته؛ لذا امتزج فى يومياته الحديث عن المواقع الحربية

بانطباعاته عن البلاد وعن حاضرها وماضيها على حد سواء . أما الجزء الثانى فقد خصصه لرسوماته عن مصر (آثار ـ طبيعة ـ فئات مختلفة ـ معارك حربية .. إلخ). وجدير بالذكر أن مذكرات دينون هى الوحيدة التى أرفق بها رسومات فى ذلك الحين.

واستُقبِلَت هذه اليوميات فى فرنسا بل وفى أوربا جميعها كما لم يتم استقبال أى مذكرات أخرى، فقد بلغ عدد الطبعات والترجمة والتعديل لكتاب دينون 42 طبعة وترجمة. وكان لهذا النجاح بالغ الأثر فى تشكيل صورة مصر لدى المواطن الفرنسى بل الأوربى فى العامة ـ فالكتابة لا تحمل الصبغة الأكاديمية والرسمية التى تتحلى بها مذكرات سابقة (مثلا رحلات فولنى وسافارى فى مصر) ولاحقة (وصف مصر)، والتى قد تمثل عائقا أمام قراءة سهلة وسريعة وممتعة لما قد تسببه من سأم، بل تتميز بالذاتية وبالأسلوب الشخصى السهل والممتع سريع التأثير على القارئ العادى.

وقبل أن نتعرض بالنقد والتحليل لهذا المصدر المهم الذى يعد ـ كما سبق أن ذكرنا ـ الأول والأكثر انتشارا وشهرة حينئذٍ ـ فإنه من الضرورى تعريف هذا الرحالة فيفان دينون فى سطور قليلة وسريعة:

ولد دومينيك فيفان دينون فى الرابع من يناير فى عام 1747 وهو ينحدر من عائلة نبلاء ريفية ساعدته على تلقى التعليم جيداً وعلى تكوين ثقافة واسعة. وأظهر منذ صغره استعداداً طيباً لموهبة الرسم. وفى ألفى عام 1765 رحل دينون من بلدته الريفية إلى باريس، وهناك استطاع أن يحقق نجاحا فى التردد على علية القوم من وزراء وماليين ونبلاء، كما تردد على الفنانين مثل الرسامين والنحاتين وجامعى التحف واللوحات؛ وذلك لما يتمتع به من ذكاء وشخصية جذابة ولياقة عالية، وبهذه الصفات وصل دينون إلى بلاط الملك لويس الخامس عشر الذى عينه فى وظيفة أمين على مجموعة الأحجار النفيسة الملكية، ولا شك أنه فى هذه الفترة تكوَّن عند دينون هواية التكديس أو "فيروس التجميع " كما يسميه جان كلود فاتان الذى

ظل يلازمه إلى آخر عمره، ثم تطرق دينون لمجال المسرح حيث كتب مسرحية تتناسب مع ذوق العصر ولكنها لم تلق أى نجاح يذكر، كما تطرق أيضاً لمجال الدبلوماسية حيث عُين فى سفارة فرنسا فى بيترسبورج فى روسيا، وتولى مهمة جمع المعلومات عن الإعدادات العسكرية والمشاكل الاقتصادية لهذا البلد، كما يقوم بالتقصى عن الحياة الخاصة للإمبراطورة كاترين وعن ديدروه أحد مؤلفى الموسوعة الفرنسية والمدعو الخاص للإمبراطورة .

وتنتهى مهمة دينون أيضاً بالفشل الذريع حيث تم طرده بتهمة التجسس ويعود إلى فرنسا ويظل بدون عمل لمدة ثلاث سنوات، يقضيها بين هوايته فى الرسم وبين رحلاته، يرسم خلالها العديد من الرسومات، كان من بينها بروتريه للفيلسوف الشهير فولتير، وتثير هذه الرسومات غضب الكاتب الكبير ولكنها تحقق لصاحبها الشهرة.

فى العام 1777 نشر دينون رواية جنسية فاضحة دون توقيع، أثارت اللغط حول مؤلفها، ولكنها نسبت فى النهاية إلى دينون وكانت هذه آخر محاولاته فى مجال الأدب، بعدها أُسنِدَ لهذا الرجل النشيط مهمة سكرتير بالسفارة الفرنسية فى نابولى ولقلة انشغاله المهنى يجد دينون متسعا من الوقت لممارسة هوايته فى تجميع التحف وفى مشاهدة الآثار، ثم رسمها أو وصفها وفى التنقيب والكشف الأثرى. وتفصح الفترة التى قضاها فى ايطاليا عن العديد من الجوانب المختلفة فى شخصية هذا الرجل الاجتماعى ذو الحياة المدنية : فهو جوال مولع بالفنون وفطن يتمتع بالحماس والإخلاص والتفانى فى عمله، دقيق الملاحظة، رسام، جامع للتحف والآثار ومنقب عنها ومكتشف وعلامة ومؤلف،وأخيرًا "ابيقورى" أو محب للحياة . وفى أثناء إقامته فى ايطاليا انضم دينون لمجموعة من العلماء فى مهمة كشف أثرى فى صقلية قام خلالها بتدوين مذكراته اليومية للرحلة ثم أعدها بعد ذلك للنشر فى باريس فى عام 1788 تحت عنوان: "رحلة إلى صقلية". تدرج بعد ذلك دينون فى السلك الدبلوماسى حتى وصل لمنصب القائم بأعمال الفرنسى فى نابولى، وبالرغم من إخلاصه وتفانيه فى عمله إلا أنه تم فصله من منصبه وعاد إلى باريس عام 1785 وهو فى الأربعين من عمره، يجر أذيال الخيبة فى عمله فى مجالى الأدب والدبلوماسية.

ولم يؤثر هذا الإخفاق سلبا فى دينون، فقد استطاع أن يستفيد من تجاربه الدبلوماسية، وأن يضع لنفسه نهجاً يسير عليه لا مكان فيه للفشل، وعاد ثانية لهوايته المفضلة ألا وهى الترحال والاغتراب والاستكشاف.

وفى هذه الأثناء قامت الثورة الفرنسية وتردد دينون بين مساندة الأرستقراطية التى ينتمى إليها وبين الانضمام إلى صفوف النظام الجديد ـ ولكنه اختار البديل الثانى خوفا من مصادرة أملاكه ومن اعتباره مهاجراً ملكياً مناهضاً للثورة ؛ ولذا فقد عاد من ايطاليا إلى فرنسا فى عام 1793 فى أحلك وأقصى سنوات الثورة ولتأمين نفسه استطاع دينون بذكائه المعتاد أن يضع نفسه تحت حماية الفنان دافيد رسام الثورة الرسمى حينئذٍ، وأن يصبح هو الآخر رسامًا ونقاشاً وطنياً، وأتاح له ذلك طرق أبواب الكبار والمسئولين فى البلد ومن بينهم صالون جوزفين دى بوهارنى وزوجها القائد الشاب بونابرت العائد من ايطاليا بأمجاد النصر. وما إن تثار فكرة الحملة على مصر حتى يتحمس لها دينون فهو بطبيعته رحالة "لم يرتبط بأحد أو بشىء فى حياته على العكس تماما كان أسير الحركة والانتقال الدائم"[1] كما يقول عنه فاتان، أما موهبته فى الوصف وفى النقل فهى التى شفعت له للمشاركة فى الحملة العسكرية والعلمية على مصر.

وبالفعل صاحب دينون بونابرت فى حملته على مصر فى 19 مايو فى عام 1798 ويعود معه فى 23 أغسطس 1799، ولكنه ينفصل عن قائد الحملة أثناء تواجده بمصر وذلك لرغبته فى مشاهدة آثار مصر القديمة، ويتبع القائد ديزيه فى مطاردته لمراد بك عبر وادى النيل وحتى الشلالات فى أقاصى الصعيد ثم يتجه ثانية للشمال وحتى الساحل، ويشهد معركة "أبو قير" الثانية ويرحل عن مصر فى أغسطس 1799.

ولدى عودته لباريس شرع دينون فى صياغة يومياته من ملاحظاته ورسوماته المأخوذة من الواقع المصرى لمدة ثلاث سنوات ونشرها فى عام 1802، ولاقت مذكراته نجاحا باهرا حيث تعددت الطبعات والترجمات، وكان لهذا النجاح نتائج

أخرى إذ تم تعيين دينون فى نهاية نفس العام على رأس متحف اللوفر، ويقوم بالإشراف على العديد من المتاحف وأصبح مسئولاً عن اقتناء وكسب التحف الفنية للدولة .

وهكذا حقق أخيرا دينون المجد والشهرة التى طالما حلم بهما، ولم تستطع تجاربه الأدبية والسياسية السابقة تحقيقها، وإنما كان اشتراكه فى الحملة العسكرية العلمية على مصر هى الورقة الرابحة إيذانا ببداية عصر جديد، عصر اهتمام القوى الغربية وتطلعاتها الاستعمارية، بتشجيع من شعوبها، والتى ستتمثل بعد ذلك فى موجة "الاجزوتيزم" أو حب كل ما هو غريب فى القرن التاسع عشر فى أوربا.

وظل دينون مديرا للوفر واستطاع أن يجمع له مجموعة فنية رائعة عن طريق الشراء أو النهب خلال مصاحبته للإمبراطور نابليون بونابرت فى معاركه فى أوربا ولكن بعد سقوط الإمبراطورية اضطر دينون لإعادة التحف المنهوبة وانتهى بتقديم استقالته من منصبه فى عام 1815، وعاش بعدها عشر سنوات قضاها بين الحياة الاجتماعية المدنية وبين الفن. ومات فى 26 ابريل فى عام 1825.

* * *

يتعرض دينون لمصر فى يومياته من خلال زاويتين: أولا مصر القديمة والحديثة كما يراها هذا الرحالة المغامر، وثانيا الفكر الاستعمارى للحملة والناحية العسكرية. وكما سبق ذكره فهذه اليوميات "رحلة إلى مصر السفلى والعليا أثناء حملات القائد بونابرت" تتبع الترتيب الزمنى فى كتابتها، ومن هنا يتداخل وصف المعارك الحربية مع وصف الآثار والطبيعة والشعب المصرى ومع آراء الكاتب وتحليلاته فيما يرى أو يسمع،وكان لزاما علينا تقسيم هذه الانطباعات حتى يمكننا دراسة وتحليل صورتنا لدى الآخر وكيفية تفسير العالم لنا ونظرته إلينا.

يحصر الكاتب فى حديثه عن مصر القديمة الآثار المصرية، ومنها ما اختفى اليوم فى الوجهين البحرى والقبلى مع محاولته لفهم هذه الحضارة القديمة فى وقت لم تكن الهيروغليفية قد تم فك رموزها بعد. أما الدولة الحديثة فتسترعى انتباهه من خلال

السكان والثقافة، ومن جهة أخرى من خلال الطبيعة المتمثلة فى نهر النيل وفى الصحراء ولكن ينصب اهتمامه الأساسى على زيارة الآثار فى صعيد مصر، كما يعترف دينون، ويعود هذا الاهتمام لشغفه العام بالآثار كما سبق أن ذكرنا فى ايطاليا وغيرها من دول أوربا. أما الآثار المصرية القديمة فتشكل عنصر الجدة لدى القارئ الفرنسى تستجيب لولعه بكل ما هو فرعونى، وهو التيار الذى بدأ فى فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر، ليس هذا فقط، بل إن الاهتمام بالحضارة المصرية القديمة والكتابة عنها كفيل بتحقيق المجد والشهرة لدينون الذى طالما حلم بهما ـ ومن هنا أفرد دينون للكتابة عن الآثار ووصفها فى أكثر من نصف ما كتبه فى مذكراته.

بدأ جولته فى الإسكندرية والوجه البحرى محاولا التعرف على الآثار على الطبيعة بعد أن كان قد تسلح بقراءات عديدة ومختلفة منها القديم والحديث عن مصر أثناء رحلته البحرية من فرنسا متجها إلى الإسكندرية : فهو يذكر على سبيل المثال لا الحصر أسماء: هيرودوت_ سترابون ـ اوزيب ـ فولنى ـ سافارى.

ويجد أن هذه المنطقة المليئة بالسكان على مر العصور قد اختلفت معالمها واختفت بعضا من آثارها فى حين أن مدينة الإسكندرية تذكره بمجدها السابق أثناء الإمبراطورية الرومانية وبمجد أوربا السابق أثناء الفتح الرومانى _ فهم يمشون على خطى يوليوس قيصر ليعيدوا للإسكندرية مجدها السابق "هذا الساحل الغربى أصبح اليوم من أكثر مناطق العالم التى طواها النسيان، لا نتذكرها إلا بميداليات رائعة باقية[2] وهذا الاسترجاع للغزو الغربى السابق بمثابة تبرير وحجة للحملة الفرنسية ذات الأهداف الحضارية التى ترفع شعار تحقيق الحريات وإعادة الأمجاد للدول الرازحة تحت نير المماليك والعثمانيين، ويخدم دينون هنا الشعارات الرسمية للسياسة الفرنسية.

ولا تشبع جولته فى الوجه البحرى رغبته فى رؤية الآثار المصرية القديمة، ولذا يحصل دينون على موافقة بونابرت فى مرافقة الكتيبة الفرنسية المتجهة إلى الصعيد لمطاردة المماليك بقيادة مراد بك.

وتسنح له الفرصة كاملة لاستكشاف الآثار الفرعونية والتعرف عليها بيسر وسهولة طبقا لقراءاته فى هذا المجال، ثم يقوم بوصفها مستخدما أسلوب الكاميرا والجيشتهالت التى يعتمد على إعطاء الشكل الفنى العام للأثر ثم ينتقل للتفاصيل مع التركيز على خصوصية الأثر وتميزه، وفى كل زيارة جديدة لنفس الأثر يثرى وصفه بإضافة تفاصيل جديدة وتصحيح تفاصيل أخرى، ويجرى مقارنات عديدة بين النقوش والرسومات على حوائط المعابد ويرى بعين ثاقبة الاختلافات والتشابهات فى الفن المصرى القديم، ويقوم بتحليل ودراسة ملاحظاته ويصل إلى نتائج كثيرا ما تكون صحيحة تماما.

ويتوقف دينون عند أصالة الحضارة الفرعونية التى اعتمدت على بيئتها واستمدت منها العناصر المختلفة مثل: رسم الطبيعة،ووجه المرأة المصرية، وزخرفة واجهات المعابد بزهرة اللوتس والنخل والأعناب والسلال. ومن ضمن استنتاجاته أن المصريين القدماء كان لديهم كتب وليس فقط لوحات مكتوبة معلقة على الحوائط، وقد توصل لهذه النتيجة عند رؤيته لرسم للكاتب المصرى القديم على أحد حوائط المعابد.

ويقع فى يده أول ورق بردى مما يثير انفعاله بشكل كبير إذ إنه يدعم ريادته المنشودة فى هذا المجال. ونتوقف قليلا عند موقف دينون من الآثار المصرية وهو موقف يتراوح ما بين الإعجاب والثورة : فبحكم عقليته التى لم تعرف سوى الفن الإغريقى والرومانى يقع فريسة التناقض، فتارة يشدو منبهرا بسحر وجمال ودقة التنفيذ للأثر وتارة يشجب الحكم الفرعونى الذى سخر البشر لتنفيذ أعمال بهذه الضخامة تطلبت مجهودا خارقا فوق طاقة الإنسان. ففى كل زيارة لمدينة الأقصر حيث يوجد أكبر تجمع للآثار الفرعونية وخاصة لمعبد الكرنك تنتابه حالة من الإرهاق البدنى والذهنى والوجدانى، إذ لا يجد تفسيرا معقولا يدفع الحكام والشعوب للقيام ببناء ضخم كهذا، وهذا يدفعه لإدانة الحكم الفرعونى ووصفه بالاستبداد والشعب المصرى بالجهل والطاعة العمياء، ولا غرابة فى ذلك فكل ثقافة

دينون فى هذا المجال مستمدة من قراءته للإغريق الذين صوروا الشعب المصرى يعانى من تسخير الفراعنة له فى بناء الأهرامات، ولكن فى الواقع كل التماثيل التى تصور الذين عاشوا فى هذه الفترة لا تدل على بؤس الشعب المصرى وإنما تدل على رضائه بهذا العمل الرامى إلى الخلود، وهى الفكرة التى لم تدركها العقلية الغربية الأوروبية. ويؤخذ فى الاعتبار أن إدانة دينون للحضارة المصرية لعقليتها ولضخامة وأحجام فنها ، هو فى الواقع الاستثناء فالإعجاب والانبهار غلبا على هذا الهاوى والعجوز ذى الخمسين عاما وذى التكوين الثقافى المنبثق من أيديولوجيات القرن الثامن عشر عصر التنوير والفلاسفة فمشاهدة هذه الآثار العريقة والأنقاض تثير فى نفسه الأشجان ومشاعر الحزن التى كانت منتشرة حينئذٍ فى فترة ما قبل الرومانسية تحت تأثير روسو ولكنه سرعان ما تغلب عليه طبيعته الواقعية فيضع جانبا البكاء على الأطلال ليرى فى هذه الآثار المبهرة تعاليم الثورة الفرنسية الداعية لإحياء هذه الحضارة العريقة عن طريق محو الاستبداد العثمانى والنظام المملوكى اللذين يعدان من الأسباب الرئيسة فى انحدار هذا الشرق ذى المجد العريق، ثم عن طريق تصدير التقدم الفكرى والعلمى والتقنى من الغرب المتفوق. إذن دينون لا ينسى مهمته فى خدمة هذه السياسة، سياسة الترويج للسياسة الفرنسية.

وعلى شاكلة من سبقه ومن لحقه من الرحالة يمضى دينون قدما فى نهب كل ما يستطيع حمله من تماثيل ويبدى أمنيته فى نقل بعض المعابد والتماثيل الضخمة لفرنسا، وهو ما سيتم بالفعل فى وقت لاحق مع المسلة المصرية التى تم نقلها إلى باريس، وذلك لإثراء متحف اللوفر ولإشباع هوايته فى جمع التحف (**) وكما يقول إبراهيم غالى: " فى هذا الوقت وفى هذا البلد كان يكفى أن تنحنى لتلتقط ما تشاء من الآثار "[3]. وربما يتساءل القارئ عن سر اهتمام دينون بالفن الفرعونى على حساب الفن القبطى والإسلامى اللذين تعرض لهما سريعا . فى الواقع كان كل ما يدفع دينون فى هذه الرحلة هى رغبته فى الريادة والسبق وفى اكتشاف أرض بكر مغلقة أمام الأوربيين منذ ألفى عام. وتفصح مذكراته عن رغبته فى أن يكون الأول فى هذا المجال.. أول من وصل إلى أسوان.. أول من عاد من الصعيد.. أول من نشر

يومياته عن مصر فى فرنسا ـ وبالفعل فقد حصد دينون نتيجة ريادته فى زيارة الصعيد. فعندما رأى بونابرت مجموعة رسومات دينون عن الآثار وعن الطبيعة فى صعيد مصر وجد أن نشر مثل هذه الصور ستخدم مصلحته. ومن هنا كان اصطحابه لدينون فى رحلة عودته لفرنسا فى عام 1799 أى قبل نهاية الحملة بعامين[4].

ومن هنا أيضاً كان تحمل دينون لصعوبات عديدة فمرافقة جيش ومواجهة ظروف صعبة مثل الحرارة الشديدة ونقص المياه والمواد الغذائية والسير لمسافات طويلة ليس بالأمر السهل على كهل فى الخمسين من عمره عاش حياة مترفة اجتماعية كنبيل أو كدبلوماسى، بل فى مواجهة مخاطر الوقوع فى يد السكان وهو فى حالة حرب معهم تضفى بعدًا آخر لصعوبة مهمته التى أنجزها فى ظروف لم يخضها غيره من الرحالة وإن كان لمصاحبة الجيش الفضل فى توفير الحماية لدينون ومساعدته على التوغل إلى أماكن لم يستطع أحد قط الوصول إليها.

ولم يبق إلا أن نؤكد على طبيعة هذه اليوميات :فهى تستهدف القارئ العادى وليس المتخصص أو الأكاديمى ـ ومن هنا جاء نجاحها الساحق الذى لعب دورا كبيرا فى انتشار موجة الهوس بكل ما هو مصرى فى نهاية القرن الثامن عشر، ثم فى تأسيس علم المصريات فى القرنين الـ 19 والـ 20، بالإضافة إلى ذلك فقد كان ليوميات دينون تأثيرها الكبير فى الفن الفرنسى والأوربى فى القرن التاسع عشر حيث إن التيمات المصرية والشرقية سيطرت بدرجة عالية على فن الرسم والزخرفة فى هذا الوقت. "وهكذا كان الانتقال من الهوس بكل ما هو مصرى فى نهاية القرن الـ18 إلى علم المصريات فى القرنين الـ 19 و20 ". [5]

كانت هذه هى صورة مصر القديمة عند دينون فكيف رأى هذا الرحالة مصر فى نهاية القرن الثامن عشر ؟

يتطرق دينون للحياة اليومية المعاصرة له متحدثا عن عناصر عديدة ومختلفة.. مثلا المجتمع المصرى وثقافته وعاداته وفئاته معطيا فى النهاية صورة عامة ذات قدر من الأهمية ليس بفضل دقتها أو جودتها وإنما بفضل تنوع عناصرها. ويسلك دينون

منهج الانطباعية حيث يقدم رؤيته لما يراه خلال تقدمه فى رحلته. وجدير بالذكر أن رسومات دينون أكثر إيحاء من نصه فيما يخص الحياة المصرية المعاصرة فى ذلك الوقت .

يحاول دينون دراسة الأصول المختلفة التى ينتمى إليها الشعب المصرى واتبع منهجا فى التحليل والربط بين الشكل والأخلاق والظروف البيئية لكل مجموعة عرقية، ويقسم دينون السكان إلى فئات مختلفة ويبدأ بفئة الأقباط، ويرى فيهم أصل سكان مصر، وهذا يعد خطأ إذ إن الأقباط هم فى الواقع مصريون قدماء اعتنقوا المسيحية فى النصف الثانى من القرن الأول الميلادى، وبالتالى لا يمكن اعتبارهم أصل الجنس المصرى؛ إذ إن المصريين عاشوا منذ آلاف السنين قبل العصر المسيحى.

وينتقل دينون لفئة السكان العرب ويقسمهم إلى فلاحين ورعاة وبدو، ويرى أن الفلاحين أكثر حضارة وأكثر فسادا وخضوعا ومهانة، ويبدى إعجابه بالرعاة الذى يرى فيهم أصل الجنس العربى . أما عن السكان غير الأصليين فيقدم للأتراك صورة مقولبة كرسها الأدب الفرنسى فى القرن الثامن عشر وهى صورة تبرز بلادة التركى وانعدام سلطته. أما اليونانيون فإن دينون يعتبرهم من الأغراب: فهو يرى فيهم الصفوة، ويجد أنه تم تهميشهم فى المجتمع المصرى خوفا من تفوقهم الذهنى . ويمضى دينون قدما فى مدح هذه الفئة وما تتمتع به من ذكاء وذوق ومرونة فى الطباع والملامح تذكره بأجدادهم الإغريق، وتؤهلهم من وجهة نظر دينون لحكم مصر.

ويظهر هنا تأثر دينون بثقافته وتكوينه الفكرى الكلاسيكى ذى الأصل الإغريقى الرومانى، فمن وجهة نظره كان التفوق ولا يزال حكرا على الغرب، قديما متمثلا فى الإغريق والرومان، وحديثا متمثلا فى أحفاد الإغريق وفى الفرنسيين المنحدرين من نفس الأصول الأوربية، ويستند دينون على المرجعية التاريخية لتبرير تمييزه العنصرى، ومن ثم الغزو العسكرى والثقافى.

ثم ينتقل لفئة اليهود ويقدم لهم أيضاً صورة مكررة ومقولبة، وهى صورة اليهودى المكروه الذى يسعى لجمع الأموال، ولا يهتم إلاّ بمصالحه الشخصية.

وتأتى فى النهاية فئة (البربر) كما يسميهم دينون وهم سكان النوبة، ويبدى دهشته من نشاطهم المتقد وخفتهم بالرغم من نحافتهم الشديدة.

وتظهر هذه الدراسة توفيق دينون فى بعض الزوايا مثل الوصف الدقيق للملامح والأخلاقيات: فقد نجح فى مسحه الشامل للأجناس المختلفة التى يتكون منها الشعب المصرى وأعطى صورة عامة عن هذا الشعب، ولكنه لم يعالج هذه المعطيات بنفس العمق، لذا نجدها غير مرتبة وغير متساوية فى تناولها وتحليلها مما لا يؤهلها لأن تكون مرجعا فى علم الأجناس.

وينتقل دينون لوصف بعض أنماط المجتمع المصرى فيتحدث عن المرأة المصرية مبديا إعجابه بخفتها ورشاقتها، ولكنه يدين ملابسها وخاصة (اليشمة) التى تترك انطباعا فى العامة كئيبا لمظهرها، ويساعد على هذا ظروفها ووضعها السيئ فى المجتمع، ويرى دينون أن تحسين أوضاع المرأة المصرية يبدأ بتخليها عن حجابها ويضيف قائلا : " أرجأت متعة رسمى للمرأة المصرية لحين أن يؤتى تأثيرنا على عادات الشرق ثماره بحيث تخلع المرأة الحجاب الذى ترتديه"[6]. ويتضح هنا البعد الثقافى للغزو الفرنسى الرامى إلى تغيير العادات والتقاليد وطمس الهوية الشرقية.

وفى تناوله بالوصف لبعض الأنماط الاجتماعية يقع دينون فريسة التناقض إذ ينحى جانبا حسه النقدى ويطلق لنفسه العنان للتنديد والانتقاد معبرا عن مكنون نفسه وطويته، فهو على سبيل المثال، يدين طائفة الخدم بصفة عامة ثم يختص خادمه الشخصى بمدح طويل، كذلك يدين طائفة العمال واصفا إياهم بالكسل الشديد ثم يمتدح سرعتهم ومهارتهم فى أداء عملهم!.. فعند محاولته للفهم يقع دينون فى خطأ التعميم، ولكنه فى أحيان أخرى، يبدى الاعتدال فى محاولاته للفهم وفى إبداء الأعذار.

ويتعرض دينون للثقافة المصرية، فنجده يبدى استياءه من الشعر والرقص الشرقى الذى يعد تعبيرًا عن الانفلات الغريزى فى حين تجذبه الحواديت المصرية وموهبة الرواة الحقيقية. ونتوقف قليلا عند موقفه من الدين الإسلامى فهو بالنسبه

له مرادف للاستبداد والفوضى والجهل والتجهيل، وتتكرر إدانته له فى أكثر من موضع من يومياته، ومثل هذا الحكم على الدين الإسلامى ينم عن موروثات ثقافية توارثتها الأجيال الأوربية منذ عهد الحروب الصليبية وحتى يومنا هذا فى التحقير بالاسلام. ولهذا الموقف السلبى سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو ما حدث من زعزعة للنظام السياسى والأخلاقى والدينى الذى قامت عليه المجتمعات الأوربية السابقة. ففى عصر التنوير ؛ أى فى القرن الثامن عشر، تم رفض الحلول الدينية وما بعد الطبيعة وكذلك سلطة التقاليد على البشر من قبل الفلاسفة وإحلال الإيمان بالإنسان وبقدرته على تحقيق التقدم والسعادة محل الاستبداد والتعصب المنبثق عن الدين، ويعبر دينون عن هذه الآراء من خلال موقفه الرافض للأديان فى العامة وللإسلام خاصة، وكما يقول فاتان: "لم يكن من الممكن أن يعجب دينون بدين محمد أو بأى فكر دينى آخر ـ فهو يرى أنه إذا كان لابد من الإيمان بشىء ما ـ فمن الأحرى أن يكون هذا الإيمان بالإنسان وليس بالله، ومن الأولى أن يكون الإيمان بالفن وليس بالجنس البشرى"[7].

ويعود موقف دينون من الدين الإسلامى إذن لتكوينه الفكرى المعبر عن جيله الرافض للأديان عموما، ولكنه يعبر أيضاً عن موقف الغرب من الإسلام، وإصرارهم على نعت الإسلام بالجهل .

ولاستكمال بيانه عن مصر القديمة والحديثة، يعطى دينون انطباعاته عن الطبيعة فى مصر ـ يصف النيل والصحراء فى أسلوب أدبى وشاعرى جميل مبينا ما يثيره الأول من إحساس بالحياة وما تثيره الصحراء من مشاعر الخوف والحزن والموت، وكذلك يعطى وصفا دقيقا للغاية عن ظاهرة رياح الخماسين.

ويمر دينون سريعا على الحيوان والنبات فى مصر، مركزا على التماسيح التى تثير فضول الأوربيين لعدم وجودها فى بيئتهم، وهدف الكاتب هو إعطاء صورة عامة عن مصر المعاصرة له وليس توفير المعلومات العلمية ولاستكمال عناصر اللوحة التى يرسمها بقلمه عن البلاد، يهتم بتصوير كل ما هو جديد وغريب على الحياة

الفرنسية والأوربية، فيتناول سريعا البيوت المصرية والقوافل ووسائل النقل والحرملك ومواكب العرس ومراسم الدفن والموائد العربية والملابس وأدوات الزراعة .. إلخ .

أما المدن المصرية، مثل القاهرة والإسكندرية فلا تثير إعجابه، وبالرغم من ذلك فهو يشعر بالحزن عند مغادرته القاهرة كما يشعر بالإحباط عند رؤيته لمدينة الإسكندرية.[8] وجدير بالذكر أن الإسكندرية كانت أول مواجهة للجيش الفرنسى مع الواقع المصرى، إذ إن الفكرة التى سيطرت على الجميع أن مصر بلاد العجائب والأساطير تقع فى نهاية العالم وكلها خيرات، وظن الجنود أنهم ذاهبون إلى مهمة سهلة، ولكنهم اصطدموا بأرض الواقع عندما لاقوا مقاومة عنيفة من أهل الإسكندرية .

وننتقل للناحية العسكرية كما صورها دينون فى يومياته، وكان لا يمكن أن يغفل هذا الجانب لخدمة بونابرت وبناء مجده الذى كرسه الأدب الفرنسى بعد ذلك فى القرن الـ 19، والذى ضمن لدينون الوصول إلى القمة بعد نشر مذكراته وهو تعيينه مديرًا على متاحف اللوفر.

ومن هنا يأتى وصفه للمعارك الحربية، وجدير بالذكر أن دينون لم يشهد أيا من المعارك الكبرى، وإنما استعلم عنها لاحقا، ثم قام بوصفها ووصف نهاياتها كأنه شهدها.

ويلجأ دينون لأكثر من وسيلة لتمجيد الفتوحات والانتصارات الفرنسية فى مصر، على سبيل المثال، يقوم بتمجيد العدو وإبراز قوته وذكائه للوصول لأحد الهدفين : الإعلاء من شأن الانتصار على الخصم العنيد أو تبرير الهزيمة أمامه ـ فنجده يرسم بكلماته صورة بطل لمراد بك وهو قائد المماليك الذى طارده ديزيه فى صعيد مصر، ويصف جيشه وخاصة الخيالة بأنها الأمهر فى الشرق كله لكى يتغنى بعد ذلك قائلا: "استطاع عدد صغير من الفرنسيين تحت قيادة بطل، أن يغزو جزءا من العالم، وأن يدفع بإحداث تغييرات معينة فى الإمبراطورية (العثمانية)، وأن يحطم

كبرياء المماليك أمام حراب المشاة"[9] ويذكر أن الجبرتى أعطى لمراد بك صورة مناقضة تماما لتلك التى رسمها دينون، فهو يصفه بالجبن والاندفاع والحماقة ولكن كما ذكرنا، فهذا أسلوب كلاسيكى لتمجيد الذات عن طريق تعظيم الآخر، ومن الوسائل الأخرى التى لجأ إليها دينون لتمجيد الحملة، ربطها بالتاريخ، فهو يقوم بمقارنات عديدة بين حملتهم وبين الحملات الصليبية السابقة، ويذكر فى أكثر من موضع من مذكراته اسم لويس التاسع الذى قاد الحملة الصليبية السابعة فى مصر فى عام 1249 مقارنا بين أخطائه التى ارتكبها فى فتحه لمصر وبين خطة حملة بونابرت، وهكذا يعزف دينون على وتر الأمجاد الفرنسية، متجاهلا الفظائع التى ارتكبها الجيش الفرنسى فى مصر.

ونتوقف هنا عند كيفية التوفيق بين التعارض الصارخ فى أفكار الثورة الفرنسية الرافضة للفكر الاستعمارى وأهدافه الاقتصادية وبين تبنيها للحملات الاستعمارية كالحملة على مصر أو بشكل أبسط التناقض بين الأقوال والأفعال، وتم معالجة هذا التناقض بالادعاءات بأن الهدف من الحملات أصبح تحضير الشرق برفع الظلم عنه وتحريره من الاستبداد العثمانى والمملوكى ثم تحقيق الرخاء والسعادة لشعوبه.. وظل دينون يردد هذه الشعارات طوال كتابته لليوميات.

أيضًا يظهر هذا التناقض فى صورته الوحشية التى استخدمها الجيش الفرنسى لقمع المقاومة المصرية، ويسطر دينون بقلمه صورة حية لبسالة الشعب المصرى فى المدن والقرى فى مواجهة العدو متهما إياه بالتعصب، وفى نفس الوقت يصور الانتقام الشديد من الثورات المصرية عند حديثه عن المقاومة فى دمنهور: "لم يعد لدمنهور وجود : فقد تم إعدام وحرق 1200 من سكانها" [10]. وفى انتفاضته ضد الغازى الفرنسى، يتعجب دينون من إنسانية ومن كرم السكان المصريين الذين مدوا يد المساعدة للفرنسيين فى أثناء ثورة القاهرة الأولى (20 أكتوبر 1798). كذلك حسن معاملة الأسرى الفرنسيين الذين كانوا يقعون فى يد السكان، كما يبدى إعجابه ببسالة المجاهدين القادمين من الحجاز لمساندة الشعب المصرى فى مقاومته للاحتلال .

كذلك يقرر دينون النهج السياسى للحكومات الاستعمارية التى انتهجتها الحركات الاستعمارية الأجنبية فيما بعد، وهو تعيين أحد المواطنين العملاء بالمشاركة مع أحد الفرنسيين فى نظام الجمع الضريبى، فقد وضعت الحملة الفرنسية وهى أول مد استعمارى غربى لمنطقة الشرق الأوسط فى العصر الحديث الأسس والقواعد التى صارت عليها الموجات الاستعمارية اللاحقة فى القرن التاسع عشر.

وبالرغم من أن دينون كان مكلفا بتأييد وتبرير الحملة فإن التناقض الواضح بين الشعارات المرفوعة عن تحرير الشعب من ظلم الطغاة وإقامة النظام والعدل وبين سلوك الجيش والنهج الذى انتهجه من قمع ونهب وانتقام وحشى من الشعب المصرى يجعل الشك يتسلل إلى نفسه حول مشروعية قضيتهم ويسرد دينون تفاصيل الانتقام الفرنسى من القرى الثائرة، ومنها النهب والسلب لكل صغيرة وكبيرة والإتيان على الأخضر واليابس مما يدفع دينون للقول :" كنت أحب أن أجد القرى وقد تركها أهلها وذلك لتجنب سماع صرخاتهم ونحن نقوم بنهبهم : لم نترك سوى الحوائط.. حتى الأبواب وأطر النوافذ كان يتم نهبها، وكانت القرية التى تم سلبها منذ ساعتين فقط تبدو وكأنها أطلال عمرها مائة سنة" !![11]

وفضلاً عن هذا بين ما لاقاه المصريون من عنت جباية الضرائب الباهظة التى فرضها عليهم بونابرت لتعويض الصعوبات والمشاكل المالية التى كانت تواجه جيشه ولتحصيل الضرائب اتبع الفرنسيون أسلوب المماليك، وفى هذا الصدد يقول دينون: "اتبعنا طريقة المماليك (فى جمع الميرى)، حيث كنا نقوم بجولة عسكرية فى المنطقة التى عليها دفع الضرائب، وكنا نخيم أمام القرى والمدن، ونأكل على حسابهم حتى السداد"[12].

ولا يذكر دينون فى يومياته انتقام بونابرت من المصريين بعد ثورة القاهرة الكبرى وهمجية جنوده فى تدنيس الأزهر الشريف، ولكن إدانته للإفراط والشطط للسلوك الفرنسى العنيف يدفعه لتبرير مشاعر الضغينة والعداوة التى يحملها المصريون للفرنسيين:

"كنا نتفاخر بأننا أكثر عدلاً من المماليك ـ ولكننا كنا نرتكب يوميا العديد من الأعمال المتعسفة ... لم يكن مصير السكان الذين جئنا من أجل سعادتهم، أفضل من أحوالهم أيام المماليك" [13] . ويتساءل فى موضع آخر قائلا: "لقد استطعنا بالفعل طرد المماليك، ولكننا عند قدومنا وبعد طردهم، ألم نحل محلهم" [14] .

ولكن هذه الخواطر لا تنسى دينون واجبه الأول فى تدعيم مجد بونابرت وتبرير جميع خطواته، ومن هنا نجده يردد المزايا التى تحققت للشعب المصرى على يد الفرنسيين مثل القضاء على عمليات الثأر فى الصعيد وتحقيق الأمن والأمان للمواطنين على حد اعتقاده.

ويظهر دهشة المصريين من عدالة الفرنسيين حتى إنهم أطلقوا على ديزيه لقب (العادل) كما يدعى دينون، ويسوق الأمثال الدالة على عدالة وتسامح ديزيه، كعفوه عن الصبى ابن الثانية عشرة سنة، وذلك عندما ضُبط الصبى متلبسا وهو يسرق الأسلحة من الجيش الفرنسى، ويتغافل عن حقيقة أن هذا المتهم تم جلده ثلاثين جلدة .

وأشار دينون إلى أهمية الموقع الاستراتيجى الجغرافى والسياسى لمصر، كذلك لاحظ ثراء البلاد وحلم بأن تصبح مستعمرة فرنسية ثرية بها مدن وأقاليم جديدة وبها عمال ماهرون ومزارعون بارعون يحلون محل الجهل والفقر والتعطل، ويصل فى أحلامه إلى إبداء رغبته فى جلب مستوطنين من أمريكا لزراعة قصب السكر فى الدلتا وفى الجزر النيلية.

* * *

فى النهاية يتضح من دراستنا أهمية يوميات دينون التى سجلت بداية ما عُرف بعد ذلك بـ "الهوس" بكل ما هو مصرى، كما أنها كشفت عن الوجه البشع للاستعمار الذى دفع دينون للتشكك حول مشروعية حقهم وقضيتهم فى هذه

الحملة: فدينون لم يكن من هؤلاء الكتّاب الذين سطروا "الملحمة النابليونية" فى صورة مثالية؛ ومن ثم يظهر التناقض الذى لاحق كاتب هذه اليوميات، فدوره الأساسى فى خدمة سياسة بونابرت والتغنى بمجده لم يستطع حجب هذا الصوت الداخلى النابع من ضميره والمُدين ـ رغما عن صاحبه ـ للحملة .

obeikan.com

المراجع العربية

- إلهام ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1991.
- جمـال بدوى: طبيعة الأمة المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1996.

  مصر من نافذة التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1995.
- زينات بيطار: الاستشراق فى الفن الرومانسى الفرنسى، عالم المعرفة ـ الكويت ـ 1992.
- سليمان حزين : حضارة مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1995.
- عبد الرحمن الجبرتى: يوميات الجبرتى، دار المعارف ـ القاهرة.
- عبد العزيز الشناوى: صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر فى نهاية القرن الـ 18، دار الكتب ـ القاهرة ـ 1971.
- ليلـى عنـان: الحملة الفرنسية بين الأسطورة والحقيقة، دار الهلال ـ القاهرة ـ 1992.
- محمد جلال كشك: ودخلت الخيل الأزهر، الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة ـ 1990.
- محمد شفيق غربال: تكوين مصر عبر العصور، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ 1996.
- محمود محمد شاكر : رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال ـ القاهرة ـ 1987.

BRUNON, Raoul : *Présentation du Voyage dans la Basse et Haute Egypte* Pygmalion , Paris, 1990.

CHATELAIN, Jean : *Dominique Vivant Denon et le Louvre de Napoléon.*Librairie Académique , Perrin , Paris , 1973.

GHALI , Ibrahim Amin : *Vivant Denon ou la conquête du bonheur*Institut français d'archéologie orientale , Le Caire , 1986.

VATIN , Jean‹Claude : *Présentation du Voyage dans la Basse et Haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte,*

Institut Français d'archéologie orientale , Le Caire , 1989.

AMBRIERE, Francis : *L'Egypte* Hachette , Paris , 1971.

CARRE , Jean‹Marie :*Voyageurs et écrivains Français en Egypte* Institut Français d'archéologie orientale, Le Caire , 1956.

DESROCHES‹NOBLECOURT , Christiane : *L'art égyptien*

PUF , Paris , 1962.

LAURENS , Henry : *L'Expédition d'Egypte* Armand Colin , Paris , 1989.

MONNET , Janine : *L'Egypte* Fernand Nathan, Paris , 1963.

Revues et périodiques

GOBY , Jean‹Edward : *Les quarantes éditions, traductions et adaptations du « Voyage da ns la basse et haute Egypte » De Vivant Denon.*

Cahiers d'histoire égyptienne , Série IV, Décembre 1952 , Maison d'édition Al‹ Maaref , Le Caire.

Annales historiques de la Révolution Française, Louis Charles Antoine Desaix N° 324‹ Avril /juin 2001.

الهوامش

1. جان كلود فاتان : تقديم لرحلة فى مصر السفلى والعليا أثناء حملة القائد بونابرت، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة 1989، ص20.
2. يوميات دينون، ص 14.
3. إبراهيم أمين غالى : فيفان دينون أو السعى إلى السعادة معهد الآثار الشرقية، القاهرة 1986، ص269.
4. هنرى لوران: الحملة على مصر، باريس 1989، ص329.
5. يوميات دينون، ص 50.
6. جان كلود فات : مرجع سبق ذكره، ص 20.
7. يوميات دينون، ص 14
8. نفس المرجع السابق، ص 27.
9. إبراهيم غالى،المرجع السابق، ص167 .
10. يوميات دينون، ص 109.
11. نفس المرجع، ص 75.
12. نفس المرجع، ص 158،195.
13. نفس المرجع، ص 31.
14. نفس المرجع ، ص 31.

❊ ❊ ❊

obeikan.com